قراءة

نوري الجراح شاعر المدينة وغزاة الداخل

«نزهةٌ» في التراجيديا السورية

لا يكتب الشاعر السوري في ديوانه الجديد عن غزاة المدينة القادمين من خارجها، بل عن غزاة الداخل الذين نتعامل معهم بتماسٍ يومي، أولئك الذين يولدون فيها ويخرّبونها ويشرّدون أهلها، راصداً حقيقة المكان واللحظة المأساوية التي يعيشها ويصفها

علي صلاح بلداوي

تعني العودة إلى الشاعر السوري نـوري الـجـرّاح (1956)، الرجوع إلـى أجـواء الـدرامـا الـشـعـريـة والأسطورية في مسرح التاريخ وحكاياته، فالقارئ لمُجمَل أعماله الشعريّة يجد بينها تواصلاً على اختلافِ أزمنةِ صدورها، كما هو الحال مع ديوان «فتيانٌ دمشقيونَ في نزهةٍ»، الصادر حديثاً عن «منشورات المتوسط».

يـتـوزّع الـكـتـاب عـلـى خـمـسـةِ فـصـولٍ، هـي: «الألـواحُ الـسـبـعـة»، و«فـاكـهـةُ صَـيـفٍ فـي صِـحـافٍ»، و«قِـنـاعُ يَـتَـمَـرأي فـي قـنـاع»، و«الـبـرابـرة والـغُـزاةُ والمديـنـةُ»، و«قصيدَة الأرض»؛ ترافقها تخطيطاتٌ تجريديّة للفنان والنحات السوري عاصم باشا.

يُـواصـل الـجَـرّاح بـهـذا الـديـوانِ مشروعه الشعريّ الـذي يُمثّل بكلِّ ما أنتجه قصيدةً طويلةً جدًا، تبدأ من أوّل لحظةٍ للكتابة، ولن تنتهي بهذا الـديـوان. هكذا نحنُ أمـامَ ترابط شعريٍّ ملحميٍّ مُمتدّ على طـول المسيرة الـشـعـريّـة الـتـي، وإن اختلف فيها الأسلوب وتـحـديـثـات بـنـيـةِ الـقـصـيـدة بـفـعل الـتـجـربـة والـزمـن، إلا أنـهـا فـي كـلّ الأحـوال تـبـقـى في عالمه الذي نعرفه على البعد والقرب ولا يشبه غيره.

إنّ القصيدة التي تصلح للقراءة مرّة واحدة تُستهلك بسهولةٍ ولا تنفع معها القراءات المتعددة. وهذا بالطبع يعودُ إلى طبيعة الـقـصـيدة نفسها، من حيث لغتها وبنائها ومهارة الشاعر في كتابتها، منزاحًا ومؤلّفًا للخيالات ومُشكّلًا للصور ومبتكرًا فيها، إضافةً إلى ما يُدرجه في نصّه من سينمائية ورؤية من زوايا متعدّدة الأبعاد. الأمر الذي من شأنه أن يُجدّد القصيدة عند كلِّ قراءةٍ ولا يستهلكُ قدرتها على الاستمراريّة الشعريّة. هذا تحديداً ما تفعله قصيدة الجراح، بل ما يفعله ديوانه موضع الحديث، إذ نجد أنّنا أمام المتانة التي نعرفها عن صاحب «حدائق هاملت»: قوّة جملته، إبهار صورته، ولذة تأويل تركيبته الشعريّة والإنصات لصوتها.

إلى جانب ذلك، إن في ديوانه هذا شيءٌ من الغرائبية والكابوسيّة التي يراها الشاعر من زاوية الانحطاط الإنساني وما من شأنه أن يعتمل في نَفْس الرائي والأعمى، بل قل إنها تداعياتٌ عبثت بالنفس حتى صارت ترى ما تستغربه وما تخافه وتنفر منه.

الـجـرّاح مسكونٌ بـالمكان، المكان الـذي لم يخرج منه شعريًا وإن خرج جسديًا وعاش متنقلًا بين بلدانٍ عدّة. هذا الديوان هو من شاعر عاشقٍ للمكان الـذي يشهدُ دماره ومأساته وليس بيده سوى أن يكتبه. فهو يكتبه راثيًا أو مُحبًا شاهدًا أو شهيدًا فيه. دمشق التي كنتُ أجدها بين قصائد الشاعر وأتلمّسُ تفاصيلها وأدخل إلى روحها، تحضر الآن في ديوانه بصورةٍ كاملة، دمشق المكان الشاعريّ الـذي تنطلقُ منه محامل القصيدة التراجيدية ومأساتها التاريخيّة. إنّها العلاقة التي لا تزداد إلا متانةً مع ازدياد البُعد، حيث نزهةُ الفتيان هنا هي نزهةٌ في الوجود الأول للإنسان السوريّ، أيّ سوريٍّ شهد المكان وذاب فيه ثمَّ رآهُ في حال تجرح العين، بل تفقأها:

«من أي الطرقِ أصلُ إليكِ، يا دمشق، يا مدينتي المسحورة،
أيَّ باب أطرقُ لِيُفْتَح لي، أنا الهاربُ وورائي سياطُ الصَّحراء،
أسيرُ في أَرْضٍ ضَرَبَتْهَا الزلازلُ

نوري الجراح

أخوضُ فِي عَمَاءٍ تَحْتَ سَمَاءٍ تَتَشَقَّقُ.
المرايا تَنْفَطِرُ وتَبْتَلِعُ الجبال.
تَائِهٌ تَحْتَ سَمَاءٍ هاذية، كُلّما بلغت أرضاً، رجمها الغيبُ، وتشقّقت تحت قدميّ.
حتى لكأنني هارب من آلهة لاهية لا تَرْمي لي قارباً إلَّا لِتُرْسِلَ في إثره
كرةً من اللهب.
أَغْمِضُ وأغيب في رمال لاهبة...
خَفْقُ عَمَاء
خَفْقُ عَمَاءُ».

إذا لم يكتب الشاعر مكانه وزمانه بما يشهده حقيقةً فما عساه أن يكتب؟ وإذا لم يكن الشاعرُ صوت الإنسان ومؤرّخ تاريخ انهزامه أو انتصاره، فماذا عساه أن يفعل؟ لا يخترعُ الشاعر مأساته حسب مزاجه، أو رغبة في أن يعيش فيها، بل يكتب حقيقته ويسطّر لحظته التي يشهدُ فيها دمار مكانه ودمار عالمه أمام لحظاتٍ سعيدةٍ لا تمثّل شيئًا أمام الخُسران. وهذا ما يرفع عن الشاعر، أيّ شاعر، تهمة المأساويّة وتوظيف شعره من أجلها. إنّ الشاعر محكومٌ بلحظته، لحظة الكتابة عمّا يشغله ويراه، وهذه اللحظة هي التي تحدّد المسار وتضع اشتراطاتها، وليس الشاعر العربيّ بهذا المعنى سوى لحظته. إنها لحظة مشتعلةٌ بنار المكان وخاضعة

> ترابط شعري ملحمي يمتد على طول تجربة الشاعر

لنكبة الزمن الذي يُساق إلى القصيدة كي يصوّر فيها خيبته:

«أخطو وأخَالُ أَنَّنا لَمْ نَكُنْ هُنَا يَوْمًا
وَهَذِهِ الكُسُورُ في الأَضلاع،
والشَّمْسُ التي اسْوَدَّتْ في دَمِنَا،
وَيَبِسَتْ على أَرْضِ المَقْتَلَةِ،
لم تكن سوى سطرٍ في حكايةٍ رُويتْ على فِتْيَةٍ اضْطَجَعُوا في ظلال شجرةٍ على الطريق.
سَطْرٌ هَارِبٌ مِنْ صَيْفٍ مُفْعَمٍ بِهَوَاء سَمَرٍ فِي صَيْف.
مَشَيْنَا النَّهارات، وخطونا الليالي،
طالبينَ دِمَشْقَ التي تَركنا في الأصياف».

يكتب الجراح في أغلب قصائده ذاته، وذاته ليست ذاتًا شخصيّة محدودة بقدر ما هي ذات الإنسانيّة التي تشتركُ في أنَّها تتعرض لاضطهادٍ وتقاومه، ذاتٌ فاقدةٌ ومفقودةٌ أيضًا. والحديث عبر الذات شعريًا يمثّل التفافًا إلى القارئ، لا يلبثُ فيه أن يذهب صوبَ جهةٍ حتى يجد أنّه يعود إلى نفسه، ليجدَ حاله في خضمِّ القصيدة التي يتمرأى فيها عاريًا وكاشفًا عن تفاعله الإنسانيّ مع محيطه. لهذا فإنّ ذات الجماعة هي ذات تجمع الشاعر وأقرانه تحت خيمةٍ واحدة، يصير فيها القارئ والشاعرُ واحداً:

«هَلْ كُنْتُ طوال الوقت أتَلصَّصُ على حياتي
أمْ كُنتُ أخرجُ إلى خَلاءٍ لأصطادَ الحكاياتِ،
ولأروي لشُبَّانٍ يافعينَ ما كنتُ أخافُ أن أروي لنفسي في عَتْمَةِ
البيت؟
ومن ثمَّ، بعدَ عطشِ الهاجِرَةِ وشربةِ الماءِ،
بَعْدَ خُطْوَةٍ فِي الرَّمْلِ وَأُخرى في المدينةِ المتلألئة عن بعد،
أعثر على المرأةِ
وأتوارى في غيابةِ البئر
في انتظار أن أروي لِمَنْ سَوْفَ يَرْمِيه في جواري سيّارةُ ماكرون.
كل ما في جعبتي، أنا المسافر في لهبِ الصّحراء
حكاياتٌ عن وقائع ما كَانَ لها أَنْ تَحدُث
لولا أن في جواري، الآن، فتىً خرج به إخْوَتُهُ في نزهةٍ
ورموهُ في
جواري».

في قصائد الكتاب انسيابيّة شعريّة في توظيف الكلمة التي تؤدي دورها برشاقةٍ تامّة، مزية تجعل قصيدة الشاعر مرنة صوتيًا وبلا تنافر لفظيّ، حتى كأنّنا نتخيّله يكتب القصيدة بطريقةٍ غنائيَّة دراميّةٍ تُرى فيها وتسمعُ وتنشد:

«اليومَ نذهبُ إلى الحقلِ،
ولن نَجِدَ أَرْضَ المعركة،
لا نِبالَ، ولا أقواسَ،
لا حِرابَ
ولا طَعَناتْ.
تركنا السيوف في الخزائنِ،
والدُّروعَ التي كَتَبَتِ القَصَصَ تَرَكْنَاها في الظِّلالْ..
التُّرابُ غَيَّبَ الحِرابَ المَكسُورةَ في الأعناق،
والجريحُ الذي تقلّبَ قُربَ مَصْرَعِهِ، مَرَّ على جبهتِهِ، خَفيفاً، هَواءُ الأصيل
ولم يكن في صدرهِ أثرٌ من طعنةٍ».

إنّ غزاة المدينة التي يكتب عنها الجرّاح، هم غزاة الداخل، لا الغزاة القادمون من خارجها. فهم يولدون فيها ويخرّبونها ويُشرِّدون أهلها، كيف لا والطغاة غزاةٌ أيضاً، السلطويون والمنتفعون من السلطة بأقنعتهم المختلفة ومن يؤدّون دور الجلّاد بإخلاص. يكتب في قصيدة «الغزاة يولدون في المدينة»:

«الغزاة الذين انتظرتهم خارج قصيدتكَ
كانُوا وراءَكَ في المَدِينَةِ:
الطَّحَّانُ اللِّص،
وسَارِقُ العَجَلة من المعبد،
التاجرُ اللاعب بالنُّقُودِ، والقَاضِي المُرتَشِي،
المُحَامِي المُصَابُ بالكَلَب،
والعَسْكَري صاحب النياشين، والجندي الراغب في سَرِيرِ المُتْعَة.
وفي حَضِيْضِ السُّلَّمِ كَاتِبُ التَّقْرِيرِ بِمِدَادِ العِلْمِ».

كتب الشاعر قصيدته هذه عام 1991، وهو يُعارضُ فيها قصيدة «في انتظار البرابرة»، لـ قسطنطين كافافيس، لكنَّه بعد أربعة عقود يكتب قصيدة «وصول البرابرة»؛ وهي القصيدة التي نسفت تلك المعارضة، وأرتنا وصول البرابرة الى المدينة، لكنّهم وعلى حدِّ قول الشاعر، لا يجدونَ منها شيئًا، فهي ليست سوى مدينة للعذاب الأسطوريّ، يكتب:

«عِنْدَمَا وَصَلَ البرابرة إلى أسوار المَدِينَةِ
كانت الأبواب مُشْرَعَة
والسُّكُونُ يَغْمُرُ المَطالِعَ وَالشُّرُفَاتِ، وَيَهِيمُ فِي الأَزِقَةِ
كانَ النَّهارُ في أَوَّلِ شَبَابِهِ والشَّمْسُ بِلِسَانِهَا الدَّافِئِ تَلْحَسُ الجُدْرَانَ..
الخواءُ رَجَعُ أَصْدَاء سَنَابِكِ الخَيْلِ...
لَمْ يَكُن في السَاحةِ المَسكونةِ بالهجرانِ حِصَانٌ ولا عربةٌ
لم يكن وراء الأسوارِ قائدٌ، ولا فَتَاةُ شُجَاعَةٌ تُلْهِمُ المُدَافِعِينَ،
لَمْ يَكُنْ حَارِسٌ هُنَاكَ وَلا حَتَّى نَافِخُ بُوق».

إذا كان ديوان الجراح يحمل عنوان «النزهة» التي لن تكون كذلك، فإنّ القارئ لا محال سيخوض نزهته الشعريّة التي تبدأ مع القصيدة الأولى ولن تنتهي مع نهاية قصائد الكتاب.

(شاعر من العراق)

وصول البرابرة

كتب نوري الجراح قصيدة «الغزاة يولدون في المدينة» عام 1991، وبدا أنه يعارض فيها قصيدة «في انتظار البرابرة» لـ قسطنطين كافافيس، لكنه بعد أربعة عقود يكتب قصيدة «وصول البرابرة»؛ هذه القصيدة التي نسفت تلك المعارضة، وأرتنا وصول البرابرة إلى المدينة، لكنهم كما يقول الشاعر، لا يجدون منها شيئًا، فهي ليست سوى مدينة للعذاب الأسطوري، مدينة لم تعد حاضرة إلا في تلك المسافة المعلّقة في زمنٍ خارج الزمن.

متابعة

باسل عبّاس وروان أبو رحمة على تلك الحدود المرعبة

حيث يذوب الوجود ويتلاشى البشر

من العرض

بين صوت لا مرئي وصور لا مسموعة، يخلق الفنانان فضاءً يمكن الإحساس به وإعادة تمثيله في سياق مقاومة الظلم والتحرّر من أشكال الحدود والطغيان

مدريد ـ **جعفر العلوني**

تنهض الرؤية الفنيّة للثنائي الفنّي الفلسطيني باسل عبّاس وروان أبو رحمة على أساس التفكير العميق في الروايات التاريخية. وغالباً ما تتخذ هذه الروايات من الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي في فلسطين نقطة انطلاق لها. ضمن هذه الرؤية، تندمج وسائل فنية عديدة مثل النص والصوت والفيلم والتركيب والأداء من أجل هدف واحد لا غير: سرد القصص غير المعروفة والمهمّشة والتي تتناول موضوعات الهوية، والعنف، والاستعمار، والذاكرة.

في عرضهما الذي يحمل عنوان «على تلك الحدود المرعبة التي يتداخل فيها وجود الناس واختفاؤهم ببعضه البعض»؛ المقام حالياً في قاعة البروتوكول بـ«متحف الملكة صوفيا» بمدريد، والذي يتواصل حتى الثلاثين من أيلول/ سبتمبر المقبل، ضمن سلسلة فعاليات بدأها المتحف في الخامس من أيار/ مايو الفائت، تضامناً مع الشعب الفلسطيني في حرب الإبادة الجماعية التي تشنها «إسرائيل» على غزّة منذ الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر 2023، يخلق الفنانان حالةً شعورية وذهنية مكثّفة لإيصال الصوت الذي يتراكب في طبقات ويجري تكراره، أو ربط الصوت بالمعنى والدلالة الصورية وغيرها من المجازات لإيصال المعنى الذي قد لا يُسمع، ولكنّه يترك أثره بالتأكيد.

هو عرض مدته إحدى عشرة دقيقة، يتمّ فيه تركيب ثلاثة عناصر بصرية لتشكّل طبقات من المعلومات والمعاني الضمنية: صورٌ ليلية للجدار الذي يمرُّ عبر قطاع غزة، وصورٌ رقمية لـ«أفاتارات» بشرية، ونصّ كتبه الفنانان وفيه اقتباسات من «أكثر أعمال إدوارد سعيد شاعرية وشخصية» على حدّ تعبيرهما.

الخيط المشترك بين هذه الصور هو الصوت والصدى وما بينهما من انعكاسات وعيّنات صوتية، تعبّر عن المطاردة، والهشاشة، والحدود، والمستقبل، خصوصاً حين تتحوّل الصور الأصلية إلى نُدب وتشوهات وملامح غير مكتملة في وجه الشخصيات الحقيقة أو في وجوه «الأفاتار».

> يضيء العنف الذي تعرّض له أولئك الذين يُعتبرون «غير قانونيين»

بين الصوت اللامرئي والصور اللامسموعة، يخلق الفنانان فضاءً يمكن الإحساس به وإعادة تمثيله في سياق مقاومة الظلم والتحرّر من أشكال الحدود والطغيان كلّها، لا سيّما تلك التي يفرضها من يستعمر الأراضي والأجساد، من يُهجّر ويمارس الإبادة. كلُّ جزئية من جزئيات هذا الفضاء تعكس ما يعنيه أن تكون إنساناً أو جسداً أو كياناً «غير قانوني». هنا يتحوّل الصوت المنبعث فجأة في شكل أغنية أو لحن يؤديها الفنانان إلى وسيلة لمنح جسد للنص، وآخر لمن سُلب جسده وأرضه.

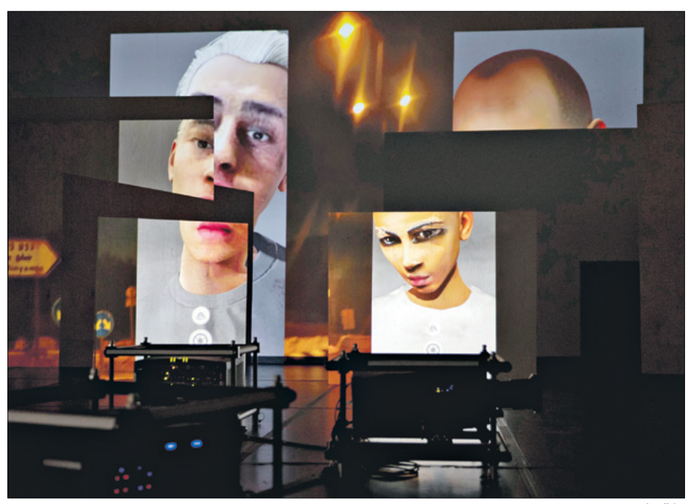

تظهر في العرض أيضاً صور الجدار ومشاهد من مظاهرات مسيرة العودة الكبرى التي انطلقت في 30 آذار/ مارس 2018، للمطالبة بحق العودة لملايين اللاجئين الفلسطينيّين وإنهاء الحصار الإسرائيلي لغزة. تضيء هذه الصور، تماماً كما العرض، العنف الاستعماري الذي تعرّض له أولئك الذين يُعتبرون «غير قانونيين»، ويمكن التخلص منهم، وغير مرئيين، ليس في فلسطين فحسب، بل في السياقات السياسية والاجتماعية الأوسع، أعني في تلك الحدود المرعبة حيث يذوب الوجود ويتلاشى البشر.

مع غزة

الحياة على سبورة مدارس دير البلح

مولود عويمر

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

الجزائر ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

الهاجس الأول الذي يشغلني هو معاناة إخواننا في غـزّة التي يعجز اللسان والقلم عن وصفها. والهاجس الثاني الذي يشغلني هو مآلات هذه الحرب التي عرفنا متى بدأت، ولكن لا ندري متى تنتهي، وكيف تنتهي. إنَّ القادر على الصّبر والمصابرة والانتصار المعنويّ والانتصار الميدانيّ، هو الذي سيحدّد ساعة النهاية وشكلها. لذلك نجد الصهاينة وحلفاءهم الغربيّين يستعملون كلّ أشكال الحرب النفسيّة والتضليل الإعلاميّ لكسر معنويات الفلسطينيّين وأنصارهم في العالم، بمن فيهم الأحرار المقيمون في أوروبا والولايات المتحدة الأميركيّة. لا شكّ في أنّ الجميع - بدون استثناء أحد - خاسر في استمرار الحرب على المستوى الأمنيّ والاقتصاديّ، ليس فقط في الشرق الأوسط، ولكن في العالم كلّه. فحرب غزّة صارت الثغرة التي تتسرب منها المياه إلى السفينة، إذا لم يتدارك الجميع الخطر في الوقت السريع لوقفها فسيغرق الكل.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية؟

لم أكن من المُدمنين على متابعة قنوات الأخبار الدوليّة أو المشاركين في برامج التحليل السياسي للوقائع الحاصلة في العالم، غير أنّ عدوان غزّة دفعني للاهتمام بالشأن الدوليّ الراهن، وقراءة كتابات خبراء العلاقات الدوليّة والاستراتيجيّة العسكريّة. وقد وظّفت هذا الرصيد المعرفي الجديد في مشاركاتي في الندوات والبرامج الإذاعيّة المخصّصة للمقاومة الفلسطينيّة. كذلك طالعت كُتبًا وأبحاثًا كثيرةً عن تاريخ فلسطين المعاصر، وكتبت العديد من المقالات والدِّراسات حول هذا الموضوع، ونشرتُ جزءًا كبيرًا منها في كتابي الأخير «المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية» في 250 صفحة. فمنذ 7 أكتوبر 2023 صارت عقارب ساعتنا مضبوطة على توقيت غزّة.

■ إلى أي درجة تشعر بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

ما يحدثُ في غَزّة، كما وصفه الخُبراء والعامّة، حَرب إبادة، فالنظام الصهيونيّ يَقتلُ بكلِّ برودة وبدون أيّ ذنب، أطفالًا ونساءً وشيوخًا، بأخطر الأسلحة، ويدمّر المدارس والمستشفيات ودور العبادة، ويشرّد ملايين من البشر. فتوثيقُ هذه المجازر ضروريٌ للتاريخ والمستقبل، ولا شك في أنَّ لكلِّ مُبدع طَريقته في تثبيت الصور والكلمة، ووَسائله للتعبير عنها وتبليغها، حتى لا تنسى آثارها ولا تتكرّر مع شعوبٍ مستضعفةٍ في أماكن أخرى. وكذلك ليُعاقب القانون في الوقت المناسب من ارتكب هذه الجرائم الإنسانيّة، وكُلّما انتشرت الحقائق وشاهد الناس فظائع الجرائم، تجنّد الأحرار في كلِّ مكان ليضغطوا على حكوماتهم لتُسرع إلى أجل إيقاف النزيف وإنهاء الحرب. فنحن المثقفين العرب لا نملك إلا لساننا وقلمنا لندافع عن هذه القضيّة المصيريّة المشتركة، ونقنع غيرنا من المثقفين والعلماء من الشرق والغرب ليدعموا المقاومة الفلسطينية حتى تتحرّر من الاحتلال.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أم مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

النِّضالُ لا يعني دائمًا الانخراط في حزب أو الانتساب لنقابة، وإنّما النِّضالُ هو قبل كل شيء التزام بفكرة أو قيمة أو قضية، بغض النظر عن الشكل الذي يعبّر عنها صاحبها. أنا اخترت التعبير عن التزامي بالإبداع الفكريّ، وهو خيار لا رجعة فيه ولا بديل عنه. لقد أدمنت مبكرًا على قراءة الكتب ومطالعة المجلات، ومارست الكتابة بشغف منذ ربع قرن. غير أنَّني أحب العمل الجمعويّ والنشاط الفكريّ، فانخرطتُ في «جمعيّة العُلماء الجزائريين» وكنت مسؤولًا عن لجنتها الإعلاميّة والثقافيّة، وعملتُ رئيس تحرير جريدتها الأسبوعيّة، ثم أصبحت رئيس تحرير مجلتها الفكريّة الفصليّة. وأُقدِّمُ منذ سنوات برنامجًا فكريًا تاريخيًا أسبوعيًا في الإذاعة الجزائريّة. فأنا أحرص على العمل الأكاديمي وكذلك خدمة المجتمع الذي يحتاج إلى من يؤطره ويوجهه في الطريق الصحيح.

> النضال هو قبل كل شيء التزام بفكرة أو قيمة أو قضية

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أنا عشتُ بين ثقافتين: العربيّة والغربيّة، درستُ في الجامعة الجزائريّة والجامعة الفرنسيّة، وتعرَّفتُ على أصدقاء من كلِّ الديانات والثقافات والحضارات، واستفدتُ من هذه اللقاءات، واكتشفتُ تقارب وجهات نظرنا في قضايا كثيرة. العالم يحتاج إلى البصيرة لتجاوز الأزمات الكثيرة التي يعيشها حاليًا، ويحتاج إلى الحكمة ليواجه التحديّات القادمة. البشريّة كلها تسير نحو مصير واحد. ولامبالاة الناس وتهوّر بعض أهل القرار يؤديان بالإنسانيّة إلى حرب كونيّة أخرى تعيد الثلة القليلة التي تنجو منها إلى عصر الحجر. كلّ أملي أن يعيش جيلي والأجيال القادمة في عالم يسوده السلام والتسامح.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

زار كارل ماركس الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر للاستجمام والاستشفاء، وتجوّل وصال في البلاد وشاهد بأمّ عينيه الأوضاع الاجتماعيّة القاسيّة التي كان يعيش فيها آنذاك أجدادي الجزائريون، غير أنّه نسي خلال رحلته قيم العدالة التي دوّنها من قبل في كتبه المعروفة، ونسيَ الثورة على الظلم التي نادى بها في أوروبا. فلو التقيتُ بهذا المفكر المُلتزم الشهير سأقول له: لماذا لم تنتفض على الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر؟ ولماذا لم تنتصر لمقاومة الجزائريين بعد العودة إلى بريطانيا؟

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

غَزّة أعطت لنا نموذجًا في الصبر والإصرار على المقاومة، حتى تستعيد حريّتها وتسترجع كرامتها مهما كان الثمن غاليًا. غَزّة كشفت الغطاء عن الأعداء الظالمين والأصدقاء الخاذلين، وأيقظت الضمائر النّائمة ونبّهت العقول الغافلة، وصار اسم فلسطين وعلمها رمزين للبطولة الصادقة والقوة الروحيّة المُلهمة. وأصبحت قضية فلسطين التي راهن الكثيرون على تهميشها في السنوات الماضية، هي القضيّة الأولى في العالم الراهن، وعادت بقوة إلى الواجهة، وكَسبت لها أنصارًا لو أنفقت ما في الأرض من مال ما كسبتهم وما نالت عطفهم وتأييدهم بالشكل الذي شاهدناه في شوارع العواصم الغربيّة وفي الجامعات الأوروبيّة والأميركيّة.

بطاقة

كاتب ومؤرخ جزائري، من مواليد عام 1968. أستاذ تاريخ الفكر المعاصر بـ«جامعة الجزائر 2». صدر له 26 كتاباً في التاريخ والفكر، منها: «العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين» (2016)، و«الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير» (2017)، و«الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل» (2018)، و«مقاربات في الاستشراق والاستغراب» (2018)، «والمؤرِّخون العرب والقضية الفلسطينية» (2024).

مولود عويمر

فعاليات

يُفتتح عند العاشرة والنصف من مساء غدٍ الجمعة، في «دار الثقافة المرناقيّة» بمدينة منّوبة التونسية، **المهرجان الجهوي للمسرح** الذي يتواصل ليومين. من بين العروض المشاركة: **كفار المخزن** لـ **آدم العيساوي**، و**الانهزام الأخير** لـ **روان العرفاوي**، و**عرش الدم** لـ **عتاب الماجدي**، و**الغناية الخامسة** لـ **تسنيم الماجري**.

ينظّم «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت، عند الخامسة من مساء غدٍ الخميس، ورشة بعنوان **نستكشف التاريخ، نتعلّم في الحاضر، ونبني للمستقبل**. ينفّذ المشاركون جدارية وأعمالاً فنية متنوعة من ورق المجلّات، عبر صنع أشكال ورموز تعبّر عن المدن الفلسطينية وتاريخها ومعالمها الأثرية وأسواقها وأزيائها التقليدية وعاداتها وأبرز مواسمها المعروفة.

حتى الرابع من كانون الثاني/ يناير 2025، يتواصل في «غاليري صفير ـ زملر» معرضان للفنان اللبناني **وليد رعد** تحت عنوان **مقامٌ آخر لـ(نكران) الجميل** و**أعلى تمتمة انتهت**، اللذان افتتحا في السابع من الشهر الجاري. يضمّ المعرضان منحوتات ومطبوعات وتجهيزاً يتناول قصف لبنان عاميْ 1983 و1984 من البارجة الأميركية.

يستضيف المسرح المكشوف في «مكتبة الإسكندرية»، عند الثامنة والنصف من مساء بعد غدٍ السبت، حفلاً موسيقياً لفرقة **أندروميدا**، ضمن فعاليات **مهرجان الصيف الدولي** في مدينة الإسكندرية. تؤدي الفرقة الموسيقية التي تأسّست عام 1987، مقطوعات كلاسيكية غربية متنوّعة، بالإضافة إلى موسيقى البلوز والروك.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

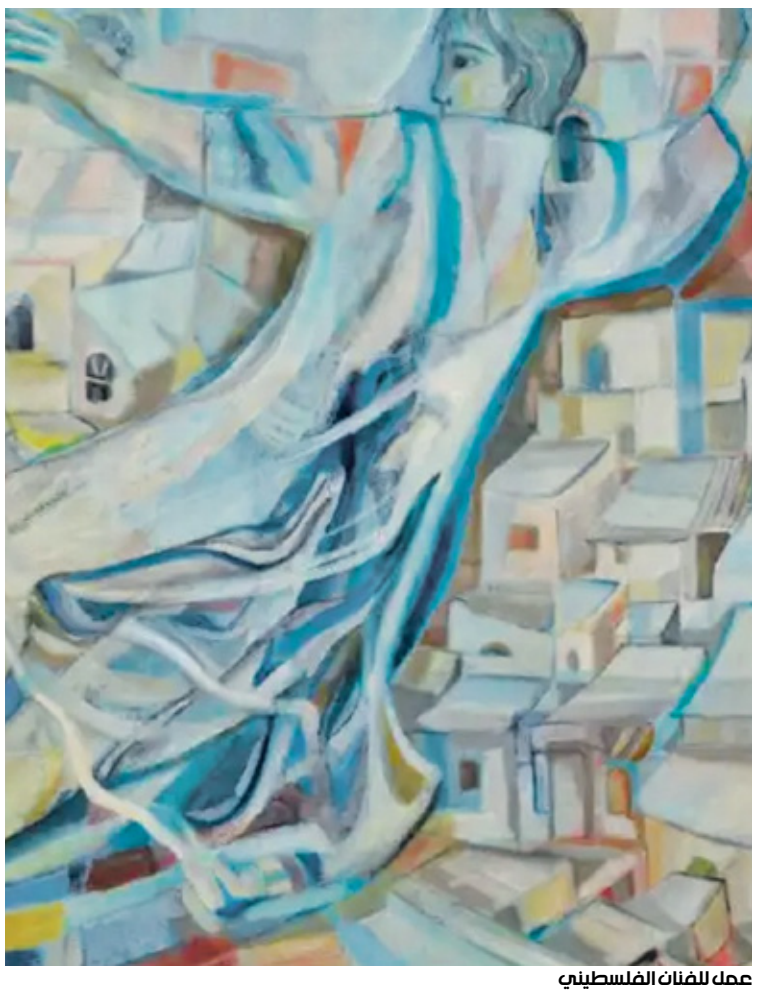
عمل للفنان الفلسطيني عابد عبدي

حمزة مصطفى أبو توهة كاتب

في رثاء مكتبة

لا شيء يشبه ذلك الشاب الذي يتلذذ بأن يحمل على أكتافه عشرات الكيلوات من الورق، صحيحٌ أنه نحيف، وأن بدنه نحيل، غير أنه إذا وصل إلى القاهرة، وأنفق فيها آلاف الدولارات في سبيل جمع الكتب، كأن الله يعطيه من الطاقة ما يتوزّع في عشرة من الرجال غيره.

مثل كل سنة يقضي شهره المفضل من الصيفّ حول جنبات الجامع الأزهر، حيث الشوارع -خصوصا درب الأتراك- تعجّ بما لذ وطاب من المكتبات، عشرة كتب يشتريها من هذه المكتبة القديمة، وعشرة كتب من تلك الحديثة، وعشرون كتابًا يهديها له مؤلفوها مع كتابة إهداءاتهم له في الجزء الفارغ من أول ورقة.

حتى إذا اجتمعت له حديقة غناء من تلك الطيبات من الكتب حِزَمها في شنط السفر بدلًا من ملابسه، يحمِلها من القاهرة إلى حيث يسكن في شمال غزة، لا شيء يعدل تلك الفرحة التي يعيشها حينما يعود من سفره، فلا ينام قبل أن يضع كل كتاب في مكانه، بعد أن يشمه ويقبّله ويعطيه حقه من حواسه الخمس.

من كثرة ولعه بها، كان يخترع طرقا كثيرة لترتيبها، تارة يضع كل الكتب أرضا ويرتبها حسب وفاة المؤلف، وتارة يرتبها حسب موضوع الكتاب، لكنه لا ينسى ذلك اليوم الذي رجع فيه من العمل فوجد أمه قد رتبت الكتب حسب لونها، الكتب الحمر في أرفف، والكتب الخُضر في أرفف، والكتب الكحلية في أرفف!

■■■

لم يكن يعلم أن الغول ستأتي يوما متفننةً في نسف ذلك الحلم الذي كرس له نفائس أوقاته، ومختلف طاقاته، ولكنه يعلم أن العلم الذي في الكتب قد أودعه الله في صدره صافيًا نقيًا عذبًا زلالا، غير أنه شخص يألف مقتنياته كأنها هو وكأنه هي، كان يرى فيها أولادا بررة، وأصدقاء مخلصين، وأهلا فيهم من الجِنوّ ما تضيق الحروف عن وصفه.

كغيره من الناس، تُجبره الحرب على النزوح من بيته ذي المكان الخطير في شمال القطاع، إلى مكان يُظِنّ أنه أكثر أمنا، مع أنه على قناعة كبيرة أن غزة كلها شيء واحد، ولكن جرت العادة خلال الحروب الخمس التي عاشها منذ عام 2008 أن يضع بجانبه الأشياء المهمة والضرورية، حتى إذا دقت ساعة الصفر، حملها معه وترك مكانه!

هو يدرك تماما في قرارة نفسه أن العشرين ألف كتاب هي أعز ما يملك، بل ربما يعدُّها أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، ولكن هل تطيق حقيبته أن تحمل هذه الجنة من الكتب، أم هو مضطر إلى أن يفاضل بينها ليأخذ معه أعزّها، ولكن مهما يكن من أمر، ما نسبة عشرة كتب من بين عشرين ألفا، وعلى فرض أن اختار الكتب العشرة المبشرة بالنجاة فهل يُكتب له هو نفسه النجاة أصلا!

ساعات طويلة قضاها ذلك المسكين وهو يحاول أن يعدل في اختياراته، فلا يظلم كتابًا على حساب كتاب، هل يأخذ معه (كتاب سيبويه)؛ قرآن النحو الذي اشتراه وهو في السنة الثانية من الجامعة، بعد أن كان ثمنه أربعة أضعاف ما يملك من مصروف المواصلات، فدفع ما يملك ووضع عند صاحب المكتبة حقيبته وهويته الشخصية رهنا، وقضى ثلاثة أسابيع يقطع المسافة مشيًا من بيت لاهيا إلى الجامعة وسط غزة، حتى أتم ثمن الكتاب، أم يأخذ معه (كتاب همع الهوامع) الذي أهداه له والده بعد حصوله على الامتياز في شهادة الثانوية العامة، ثم يقدر الله أن تكون رسالته الماجستير في ذلك الكتاب، أم يأخذ معه (شرح الزوزني على المعلقات) الذي كان رفيقه في الإعدادية حينما كان يحفظ تلك القصائد السبع التي علقها الجاهليون داخل الكعبة؟

■■■

كان طيلة أيام الإخلاء يرجع إلى بيته في بيت لاهيا، رغم خطورة المكان يجازف بالرجوع إليه، هو على يقين أن روحه تسكن في الزاوية الشرقية الجنوبية من البيت، حيث المكتبة تسمعه أصوات العلماء ومحاورات الأدباء، ونقائض جرير والفرزدق، تخرجه من ظلمة الحرب وشقائها إلى نور الحياة وسعادتها.

لا ينسى ذلك الأنيق أن يعيش طقوسه قبل دخول المكتبة، يغتسل ويتطيب ويصفف شعره بعد أن يتوضأ، ثم يدخل إليها بقدمه اليمين، تنزعه إلى تلك الأفعال سجايا حميدة كان العرب يفعلونها، كانوا -كما قال أبو عمرو بن العلاء- يتوضؤون قبل أن تنشد قصيدة المتلمس: «تعيرني أمي رجال...».

حتى إذا كان الثامن والعشرون من تشرين الأول/ أكتوبر، خرج من المكتبة صباحا مسرعا، ليقضي حاجة له، عاد متلهفًا متشوّقا لإكمال ما كان فيه من نعيم مقيم، وصل إلى بيت مهدم، فرجع من الشارع نفسه وخرج منه، هذه أول مرة يضل فيها عن طريق بيته، لا أدري ما الذي كان يشغله، أغلب الظن أنه ما زال يدير في ذهنه خلاف العلماء ومفاضلتهم بين أبي تمام والبحتري، وهل كان الآمدي منصفًا في (الموازنة بين الطائيَّين)، أم هل كان الجرجاني عادلا في (الوساطة بين المتنبي وخصومه)؟ في طريق رجوعه من ذلك الشارع الذي دخل فيه بالخطأ، اصطدم ببيت صديقه (معروف)، فاتخذ ذلك البيت مِعلمًا وبوصلة إلى بيته، وإذا به يسير في نفسه الاتجاه الذي كان يعتقد أولا أنه طريق خطأ، إذا فالبيت المهدم بيتُه، والأوراق التي تملأ الشارع أجزاء كتبه وأشلاؤها، لا مجال لديه أن يبكي ويندب، فإن الحروب السابقة كوّنت له مناعة قوية ضد الصدمات، ونقشت في ذهنه أن كل شيء في هذه البلاد جائز.

لم يكن يعلم أن الغول ستأتي يومًا متفنّنةً في نسف ذلك الحلم الذي كرس له نفائس أوقاته

لم يعرف طريقة لطيفة يوصل بها خبر البيت وتدميره إلى أهله، هو يعرف أن في طبعه بعض القسوة، دخل على الأهل في بيت النزوح في مخيم جباليا، وقال لهم: «قصف البيت»، فما كان جواب الوالدة إلا أن قالت: «الحمد لله على كل حال»، ولكنه ما زال يعجب من سؤال رزان ابنته ذات السنوات الأربع: «والمكتبة يا بابا؟».

عوَّده والده أن يكون عمليًا، يمضي في ما يخطط له سريعا، أول شيء خطر في باله أن ينقذ أي شيء من بقايا تلك الجنة، وثاني شيء خطر في ذهنه ذلك الذراع المتينة، صديقه (معروف الأشقر)، الذي كان ينتظره قبيل كل رجوع له من القاهرة، يقف من الصباح الباكر أمام البوابة الفلسطينية من معبر رفح، ويحمل معه تلك الكراتين من الكتب، ويلازمه حتى يضع كل كتاب مكانه.

■■■

(معروف) إنسان شهم وقوي وجلد، غير أني رأيته أضعف ما يكون حينما رأى ذلك الدمار الذي حل بالبيت والمكتبة، لكنه تماسك وشرع معًي سريعا في إجلاء بعض الكتب، ما زال صوته يرنّ في أذني حينما ينقذ كتابًا، فيقول بصوت فرح: «حمزة، لقيت كنز»، فأرد عليه مسرعا: «شو يا معروف؟»، فيقول لي: «كتاب المستطرف للأبشيهي»، فأنتشي طربًا لنجاة ذلك الكتاب، ثم بعد دقائق: «حمزة، لقيت كنز تاني»، «شو يا معروف؟»، «كتاب الكافية لابن الحاجب»، «الله أكبر يا معروف، الحمد لله».

وهكذا بقيت معه ثلاثة أيام حتى أخرجنا 5% من المكتبة، وحفظناها في بيت مجاور لبيتنا المدمر، وجاء اليوم الرابع شديد المطر فأتلف كثيرًا من الكتب التي كنت أظن أني أستطيع إجلاءها، لا أذكر يوما أني كرهت المطر إلا تلك الأيام، وقلت في عقلي: «حسبي أني أستطيع إنقاذ بعض الكتب».

غالب الظن أن الحرب كانت تستمع إلى ما قلته في عقلي، فأقسمت عليّ كما أقسمت على كل ساكن لغزة ألا تترك له ما يسعده، فقصفت البيت الذي وضعت فيه الكتب التي أنقذتها، ولكن نفسي الماكرة ما زالت تخفّفت عني وتقول لي: «العلم في صدرك يا ولدي».

ديانا الشناوي روائية

بقعة زيت

أتأمل هذا الوقت، فلا أجد ما يليق به من كلمات... كلّ ما أشعر به هو أنني بقعة زيت، تطفو فوق سطح كبير من الماء، لا أستطيع التوغل داخله، ولا أحب البقاء فوق السطح. تتقاذفني المياه حسب حركة الريح، أتأمل هذا الوقت، أحاول ترتيبه في عقلي منذ البداية وحتى الآن، لا أنفك عن تكرار جملة واحدة. إنه حلم، بل هو كابوسٌ مخيف لا يريد أن ينتهي؛ الحرب لعينة، وتفاصيلها قذرة، قدرتنا على الاحتمال تكمن في فسحة أمل صغيرة، تعدنا بأنّ كلّ هذا سينتهي حتماً، ورغم أنه لا ينتهي، ما زلنا نبني أحلامنا على النجاة والبدء من جديد.

أيتها الحياة ألم تكتفِ بعد من وجعنا، من صرخاتنا، من تشردنا، من موتنا! ألم تكتفِ من تأرجحنا ما بين نار ونار!

■■■

عزيزي الوطن...

بما أنك أصبحت كومةً من حجارة وجثث. تغيّرت ملامحك فلم أعد أستطع التعرّف إليك، فهل لك أن تدلني على الطريق، علّني أجد ضالتي وتطمئنّ روحي، وأكفّ عن سماع الأنين والصراخ داخل جمجمتي؟

إنه النزوح الخامس دون الاعتياد على نمط الحياة البدائية الغريبة التي فرضت علينا. أنا المرأة المدلّلة، المرفهة التي كانت تعيش في بيت به كلّ وسائل الراحة، أتنقل بين شوارع مدينتي غزّة من بحرها إلى مطاعمها، من بيوت الأصدقاء والأقارب إلى مراكزنا الثقافية ومسرحنا وفعالياتنا. الآن أتنقل بخيمتي من شارع إلى آخر، من غزّة إلى النصيرات إلى خانيونس إلى حدود رفح!

حاصرتنا الدبابات الإسرائيلية في خانيونس، هربنا من وقع النيران والقصف إلى تل السلطان في رفح، فلم أجد مكاناً لخيمتنا سوى بجانب الحدود والمقبرة...

في نزوحي الثالث، وضعت خيمتي على الحدود المصرية في رفح، تلال رملية تحرقها الشمس الذهبية. صحراء ومقبرة كبيرة، الناس كثيرة، تقطن في منطقة صغيرة، الخيام متراصة وكأنها مدينة من الأقمشة. أنا التي تخاف المشي بجانب القبور كيف لي أن أضع خيمتي بالقرب منها؟!

لاحظَ حيرتي عجوز بجانبي، فنظَر لي مبتسما وقال: «ضعي خيمتك هنا. الأموات لا يؤذون أحداً، لا يعتدون على أحد، ولا تثرثر... إنهم هادئون دوماً، لن يزعجوك صدقيني!».

هززتُ رأسي، وقد استسلمت للفكرة فلا خيار آخر.

صحراء، مقبرة وحدود، قمامة كثيرة تملأ كلّ الأماكن، رائحة المجاري تعبق في المكان، قبائل من الذباب والبعوض، صوت جاري لكأنه يجلس في خيمتي، ودودة أرض تخرج معترضة... كيف لي أن أحتل أرضها؟! هي التي كانت تعيش هنا بسلام قبل أن آتي أنا وعائلتي وأقتحم خصوصيتها، أراها تمشي على مخدتي مستكشفة الضيف الجديد!

أعتذر لها، أخبرها عن قلّة حيلتي وبؤسي. أتمشى ليلاً في شوارع رفح القريبة من خيمتي، وسؤال وحيد يتردد في خاطري. ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ كيف لي الاستمرار في حياة بائسة لا تشبهني؟ الوجوه حولي واجمة حزينة، الناس تتراكم، تزدحم، تتدافع، السوق فارغة إلا من المعلبات، الأسعار خيالية، رمضان يقترب، لكن هناك مفاوضات جارية، وأمل ضئيل في أن نعود إلى بيوتنا في غزة. يداعبني الحلم سأعود إلى بيتي...

■■■

لا شيء يتغيّر، يأتي رمضان حزيناً وأزداد اكتئاباً، وتزداد التساؤلات في رأسي. أقرّر أن أفاجئ عائلتي في أول يوم من رمضان، وأشتري طعاماً لذيذاً كما كنت أفعل في غزة، أريدهم أن يشعروا ولو قليلاً بأن رمضان هنا يبدأ اليوم في خيمتنا... أذهب إلى السوق، أسأل عن أسعار اللحم والملوخية والسمك... يا إلهي! أسعارٌ باهظة جداً، وبدأت بحساب التكلفة وعدد الأفراد في خيمتي، وفي خيام إخوتي من حولي، فكيف لي أن أطبخ في أول يوم ولا أطعم مَن حولي، واستدركت أنني لن أستطيع طبخ وجبة الفطور الرمضاني لأنها فوق إمكاناتي المادية... عدت من السوق وأنا أجرّ أذيال خيبتي، أنظر إلى أبنائي وإلى أبناء إخوتي، وأتذكر اليوم الأول في رمضان، عندما كنا في بيوتنا... أكتم دمعتي، أريد أن أصرخ، أعترض وأهرب لكنني لا أستطيع فعل شيء سوى الاستسلام للواقع المرّ... الموت يحيط بي، أشاهد الجثث التي تصل وتدفن في المقبرة بجانبي، أسمع العويل والنواح، أرى الدموع الصامتة، أشاهد الأمهات وهن يحتضنّ جثث أبنائهن، تسقط من عيني دمعة وأتنهد، يموت أبي، لا يحتمل فكرة الخروج من المنزل وهو في هذا السن، عقله لم يستوعب ما يحدث... قال لي قبل أن يموت بأيام: «ليتني متّ قبل أن يحدث كلّ هذا!».

مات أبي قهراً، مات حزناً على كلّ شيء.

■■■

توالت أخبار استشهاد الأقارب والجيران والأصدقاء. الأيام تمرّ رتيبة، نسعى في كلّ يوم لتوفير الطعام والماء ومتابعة الأخبار. يأتي العيد كأنه يوم عادي بلا أي مظاهر، لا كعك، لا ملابس جديدة... لا فرحة.

كلما حضرتْ مناسبة لها طقوسها وذكرياتها أكلت من قلبي قطعة حتى خلت بأنني أعتصر الحزن وأخزنه في قوارير، لأنه لم يعد هناك متسع في داخلي، تهبط مظلات المساعدات من الطائرات نراها من بعيد تسقط، أتأمل الناس وهي تجري تحاول اللحاق بها علها تفوز ببعض المعلبات أو الشاي أو السكر، لمَ علينا أن نصل إلى هذه الحال؟ لماذا تغيرت ثقافتنا في هذه الفترة القصيرة وأصبحنا نركض حتى لا نموت جوعاً؟

طائرة أخرى تحوم وتسقط منها منشورات، يتجمهر الناس ليلتقطوا بعضها وهي عادة تدعو للتحريض على المقاومة، أو تضم صوراً للأسرى الإسرائيليين للتبليغ عن مكان تواجدهم... يصاب أبنائي بمرض الكبد الوبائي ولا علاج متوفراً له، أدور حول نفسي، أبحث في السوق كمن يبحث عن إبرة بين أكوام من القش عن عسل أسود، تمر وحلويات بلا زيوت، لأنها العلاج الوحيد حالياً. أبحث عن طعام لا يؤذي كبد أبنائي فلا أجد إلا القليل، أشعر بالعجز، أراهم يتألمون وأقف منتظرة نهاية المرض بيد إلهية، ومعجزة الكون ومرور الوقت.

روتين، قلق... توتر... نركض ونركض، نعود بلا شيء، نسمع احتفالاً من هنا ومن هناك، وصوت صراخ «هدنة... هدنة»، لا شيء يتغيّر... لا هدنة جديدة ولا أمل جديداً.

■■■

العدو سيضرب رفح، ونحن سننزح من جديد وننقل خيمتنا من الحدود... الصحراء، المقابر، مجمع القمامة، لكن إلى أين؟ فلم يعد هناك مكان. وكان الخيار المتبقي هو شاطئ البحر، مكان مثالي للراحة النفسية والاسترخاء ونفض تعب الصحراء وقسوتها لكنني لست في رحلة، والحياة لا تفتح ذراعيها للبائسين، بل تزيدهم بؤساً وشقاء، ننقل خيمتنا في سيارة بأجر خيالي من رفح إلى شاطئ مواصي خانيونس في نزوحي الرابع، لكنّ البحر مزاجه سيئ، لا يرحب بنا، يهجم علينا في كلّ ليلة ويصرخ بأعلى صوته رافضاً لنا... كنت أتغنى بالبحر، أحبّه، أصادقه وأستمع لوشوشاته، أقرأ كلمات العاشقين فوق سطح مياهه... كرهته!

أراه غولاً يريد أن يلتهمنا، يخرج السلطعون من تحت فراشنا معترضاً، ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ لم تتركوا مكاناً لي؟ أعتذر له فأنا في حال أسوأ منه، أبكي وأصرخ، لا أريد الاستمرار هنا، ملوحة البحر ورطوبته وشمسه الحارقة تقتلني، صوت هديره يملأ رأسي، يبدو أنّ مجالستي للأموات لا تتفق مع صخب البحر...

الناس هنا تغسل ملابسها وتنظّف أواني الطبخ بماء البحر ولا بديل، فمياه الشرب النظيفة بأسعار غالية، ولا تتوفر بسهولة... إنّه عالمٌ آخر منعزل، لا شيء أمامك سوى البحر، وخلفك خيامٌ متراصة متلاصقة وأناس أنهكتها الحرب والحياة.

■■■

أقرّر النزوح للمرة الخامسة إلى دير البلح، أسكن هذه المرة في أرض زراعية، بها ماء وأشجار وبعض الهدوء، أعتذر لعزيزي الخلد لأنني سكنت أرضه واقتحمت مكانه، أعتذر بشدة من النمل ومن الرمل ومن الحشرات والسحالي، لا أريد إزعاجكم. صدقوني لكنني مضطرة، مرغمة، مشرّدة.

لعله النزوح الأخير... كلي أمل بأن يكون الأخير وأعود بعده إلى بيتي حتى لو كان كومة حطام، أعود إلى مدينتي التي أعرفها وتعرفني، روحي معلّقة هناك، وأنا هنا جسد يقضي وقتاً سيئاً، مريراً، متكرراً، ينتظر توقّف هذا الزمن ورحيله إلى حيث اللاعودة. أشعر بالغربة في وطني، وطني الذي تغيّرت ملامحه ويومياته، وأصبح كومةً من الحطام والجثث، نحن الذين بقينا على قيد الحياة، نموت في كلّ ساعة، نسمع صوت القصف من حولنا، ينتفض جسدنا...

لم نمتْ بعد!

لكن إلى متى سنبقى أحياء؟ إلى متى سننتظر المصير؟ أيّ مصير مهما كان!

بقعة زيت، تطفو فوق سطح كبير من الماء، لا أستطيع التوغل داخله، ولا أحب البقاء فوق السطح